

قراءة في عنوان:

«قراءة امرأة» لصالح ستيتية

الدكتور مصباح الصمد

لأدب صلاح ستيتية - «اقرأ باسم ربك الذي خلق» خلق الإنسان من علق* اقرأ وربك الأكرم* الذي علم بالقلم* علم الإنسان ما لم يعلم*^(١).

اقتران القراءة بالمعرفة وبالعلم. بالعلقة والمضغة والنطفة، بما يتكوّن داخل الرحم قبل أن يوضع الحمل، ثم بالقلم، أداة التعليم والتسطير. ثم بسلوك سبيل المعرفة الواسع، بدوام الاطلاع على ما يجمله الإنسان.

تتجاوز القراءة هنا مداها الذهني والفكري والروحاني لتسمو إلى أعلى ما يمكن للإنسان أن يبلغه في سلوكه الديني والدنيوي: معرفة وعلم وعمل. من هنا كان المعنى الديني الحصري الشائع لكلمتي «قارئ» و«مقرئ» ثم مرادفة «القراءة» و«التلاوة».

ولكن القراءة تفترض وجود نصّ مكتوب، وتنشد إيجاد نصّ آخر. إنها مرحلة ما بين النصّين، ما تقرؤه، وما تقول، ما تلميه. تفترض إذن، قبل البدء بها، الإماماً بالأحرف والحركات والإشارات، ومعرفة بالمفردات والمصطلحات والتراكيب.

- ولنتذكّر أن النصّ المقروء هنا هو امرأة -
وتفترض أيضاً - والرواية شاهد على ذلك - قدرة القارئ على القول.

تفترض أن القارئ يقرأ ليُقرئ، أنه يتعلّم ليعلم، أنه ناقل معرفة... أنه كاتب.

- ولنتذكّر أن النصّ المكتوب هنا هو امرأة: «أنا لست سوى امرأة، كتابة شقراء وسمراء»^(٢).

قراءة نصّ في سبيل إيجاد نصّ آخر. تلك هي الرواية. ولكن القراءة رحلة والكتابة رحلة أيضاً.

القراءة رحلة في النصّ تبدأ ما إن تمسك كتاباً أو مقالة أو قصيدة. ننتقل مع الكلمة الأولى ثم نبتعد جملة فجملة حتى نقتلنا الصفحات بعيداً عن مقعد نجلس عليه وأثاث يحيط بنا وأشخاص

«قراءة امرأة»^(٣)

اقتران الضدّين في لعبة التوالد. تساكُن المتنافرات وتصادمها في عنوان يختزل مدى الرواية الشعرية. إغراق في الساطة للوهلة الأولى، وإمعان في تنافر المتجاورين لا يلبث أن يكرّس ويطنّخ. خيوط تتجمّع من شتات، وخطوط تتقارب على افتراق. ويتم كل ذلك في كلمتين اثنتين:

قراءة امرأة

والقراءة قول، والقراءة فكر، والقراءة معرفة، والقراءة تخيّل وتخيّل وتجريد، وهي قبل ذلك وخلالها تعلّم وتدرّب ومراس... والمرأة جسد ورغبة... أنثى... وهي حمل وولادة... طمّث ونفاس... أو هي حواء وفينوس وعشتار والعذراء مريم ومريم المجدلية وليلى وولادة وشهرزاد وشجرة الدر ومدام كوري... مع كل ما تمثّله تلك الأسماء من دلالات مختلفة ومتباينة، ولكن كلمة «امرأة» توجّه الذهن بشكل عفوي وتلقائي نحو المرأة - الجسد، المرأة - الرغبة... المحسوس.

هكذا ينشأ التناقض بين كلمتي عنوان الرواية - القصيدة.

قراءة...

هي في البداية فك رموز، هي تفكيك وتركيب أحرف ضمن كلمات وجمل تشكّل نصّاً. وهي غوص في النصّ لتحليله وفهمه، لسبر أغواره والاطلاع على مكنوناته. فمن البديهي إذن أن تكون مسيرة عقلية وفكرية تتعامل مع النصّ بمنهجية لكي تتوصّل إلى تبلّغ خطابه وتمثّل مقولته وتفهم خلفيته وغايته.

هي إذن نقيض الأمية، والأمية تعني الجهل، من هنا تصبح القراءة مرادفاً للمعرفة، أو لنقل إنها سلوك درب المعرفة.

هكذا نجد أنفسنا أمام غاية النصّ القرآني - والنصوص الإسلامية والعربية بدءاً بالقرآن الكريم، مروراً بكتابات المتصوّفين، وصولاً إلى الشعر في قديمه وحديثه تشكّل خلفية أساسية

قريبين، فنسلك دروب النصّ ونحيا عالمه ويجول بصرنا بين خطوط النصّ - الجسد متأماً مستفسراً وباحثاً.

وينتقل ذهننا «من نقطة كان فيها قبل القراءة إلى نقطة مختلفة عند الانتهاء»⁽⁴⁾.

- والمرأة هي مادة الرحلة هنا ومداها -

والكتابة رحلة هي الأخرى. هي قبل كل شيء حركة على الصفحة. وهي انتقال تقوم به العين، شبيه بذلك الذي تمنحه القراءة، تنقل عضوي. كما أنها تحمل الكاتب في رحلة أخرى، ذهنية وفكرية، يعيش خلالها ضمن عالم آخر. عالم مختلف الزمان والمكان، نعيم أو جحيم، يحدّد ملامحه نتاج القراءة المكتوب.

- جسد النصّ المكتوب امرأة تنتظر القراءة -

رحلة مزدوجة إذن، بل نفي إرادي مزدوج، يتم في عملية القراءة: قراءة لكتابة وقراءة كاتبة. من النصّ إلى النصّ. «من الليل إلى الليل تعدو عدة القول، رعشته»⁽⁵⁾.

وبما أننا تحدّثنا عن النفي كاستعارة للقراءة والكتابة، فلم لا نسأل عنه صلاح ستيتية الذي سيجيب: «النفي هو حالة ذاك الذهاب من حلم إلى حلم - من حلم ماضٍ إلى حلم آتٍ - والذي يجد نفسه، وكل وجود حوله، ينعطف نحو الحلم»⁽⁶⁾.

هكذا يصبح النصّ تجسيداً لواقع يتكرّس بين حلمين، وتمثّل القراءة لحظة التقاط ومضة من مجرّات الواقع المتناثرة والمتطايرة.

- ومضة النصّ الملتقط بعضاً من شتات امرأة -

أما «إذا استطعنا أن نسكن ومضة، فذلك يعني أننا في قلب الأبدية» (نعينه بعد ستيتية ورينيه شار). القراءة ومضة خلود، تحدّ للزمن والموت وهي بذلك تنهائي ليس فقط مع بداية الكلام، بداية القول، بل أيضاً مع بدايات الزمن، مع انطلاقة كل عملية تكوين وإبداع. هكذا توضّح القراءة قولاً - وفعل القول يتموضع في بداية تكوين العالم والأكوان.

«في بداية كل معتقداتنا تأتي الكلمة»⁽⁷⁾.

القراءة هي إذن محاولة إدراك لسرّ القول وجوهره: معرفة ما تنطوي عليه النصوص. والنصوص منها ما هو مكتوب ومنها ما هو مرثي، وما هو مسموع، وما هو ملموس. النصوص هي «الآيات» التي يضجُّ بها الكون - من حبة الرمل إلى الزهرة إلى البهيمه إلى الشمس والقمر والأفلاك - هي الإشارات التي تنبئ عن السرّ الأسمى. والقراءة هي محاولة التفقّه في كل ذلك.

... وهي أيضاً محاولة «تحويل الكلام إلى قول»⁽⁸⁾. هذا التحويل، هذا التخلفن، هو ما ينفرد به الإنسان بين الكائنات. هو

ما يحقّق إنسانية الإنسان. ما يعطي لفكره دوره وغايته. ما يجعله يغوص في «هذا النهر الذي ينطلق من الحياة عائداً إلى التساؤل ومصدر الروح، والوجود والأشياء جميعاً»⁽⁹⁾. عودة إلى المصدر، إلى المنبع، إلى الكلمة المقروءة والمقولة إلى الكلمة - الفعل.

- وامرأة الرواية هي كلمة الفعل وفعل الكلمة -

القراءة كمعرفة وفعل هي التي اعتمدها أحد تيارات النقد الأدبي في الغرب المعاصر للدلالة على نقد عمل أدبي أو فني من وجهة نظر لا تدعي الأحادية ولا الشمولية، وهي ما قد نطلق عليه «قراءة التلمّس» أو القراءة كوجهة نظر قابلة للأخذ والردّ. نقد متواضع هي إذن، فقد يعترف منذ البداية بأن جلّ غايته أن يلتقط قسماً من نور بعيد، أو ميضاً صادراً عن مرآة تعكس مرآة أخرى فثالثة وهلمّ جرا. يدرك القارئ مسبقاً أنه سيقع في شرك النصّ... أنه سيسلك درباً مظلماً في غابة متشابكة، وأنه سوف يضرب فيه على غير هدى قبل أن يبلغ ساعة الغسق، ساعة تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود. في تلك الساعة من شهوات الليل (عفواً، مظفر النواب)، من شهوات الشعر مقروءاً ومكتوباً ومرثماً، من شهوات الحياة تعاش وتستعاد، شهوات سمك الترويت السابح ضدّ التيار نحو المصدر والنبع، في تلك الساعة المترنحة بين الموت والحياة، وعلى خيط رفيع يربط ما بين مجهولين يهيم راوي صلاح ستيتية، السالك شفير الهاوية والسقوط، يهيم قارئاً امرأة.

- «قراءة تنشُد المعرفة في متاهة المرأة - النصّ» -

... امرأة

قراءة ترتبط بـ «امرأة».

امرأة: مفرد، مؤنث ونكرة.

امرأة واحدة... زوجة وعشيقة. وهي بالرغم من ذلك نكرة. لم تكتب بعد مجد «ال» التعريف رغم سني الزواج العشر التي سبقتها فترة حب وتلتها فترة موت الزوج الراوي.

بقيت غير معرفة وغير معروفة، ملتبسة وغير محدّدة. مجهولة، ضائعة، حتى اسمها، هيلانة، فإنه يبتدئ بالحرف الوحيد من الأبجدية الذي يخرج من الحلق زفرة متلاشية في الهواء⁽¹⁰⁾. حرف يُقال ولا يُقال. يُنطق منطلقاً من شبه فراغ ليشثت في الفراغ. من هنا ربما، كانت كتابة الهاء أصعب من كل حروف العربية الأخرى، خصوصاً بالنسبة لتلميذ حديث التعلّم - جديد في القراءة، إذ كيف السبيل إلى كتابة الخواء، كتابة سديم اللغة المنطوق سديماً قولياً.

وهي نكرة، نعود لنقول ذلك، هي «امرأة»، واحدة من النساء، وقد تكون أيضاً منهن. المهم أنها ليست «المرأة»، الجنس، ليست التعميم ولا النموذج، بل هي التخصيص والتمييز. قد تكون أية واحدة، ولكن بخصائصها وميزاتها.

المرأة المقروءة - أو القارئة - تصبح إذن بشكل ما «المرأة الأولى بعد الألف».

امرأة تستحضر بين الليل والقراءة، تنهاى في الليل والقراءة، مع الظلمة والنور، مع الجهل والمعرفة. امرأة تستجمع التناقضات، تحتزنها وتحتزها.

(قراءة التناقضات في امرأة النص المتجسد ليلة أنثوية)

ولكن امرأة القراءة، شهرزاد المنيحة - المنقذة، المرأة - الليل والقنديل «القنديل الغامض لذلك»^(١١)، قنديل الكلام غير المشع إشعاعاً تاماً، الذي يحمله الشاعر لكي يستطيع السير في ليل المعنى، وليل المني^(١٢)، امرأة القراءة هي في ذلك وقبله وبعده «المرأة» - المرأة - الجسد، المرأة - العاطفة. هي الجنس الآخر، غريزة وشهوة ورغبة، هي «هدف شهوة الرجل بالاستيطان في هذا العالم، والرغبة بالامتداد الجنسي والامتداد الروحي»^(١٣)، هي النصف الآخر مرغوباً ومرهوباً، وغريزة الحياة كموناً وظهوراً وممارسة، والجسد المحمول حلماً وعاطفة والحامل استمرارية الانسان وتواصل الأجيال.

بصورة تلقائية نجد أنفسنا أمام المرأة كرمز للخصوبة، وهذا ما يضعنا أمام كوكبة رمزية واسعة ترتبط بهذا المفهوم. الأرض، والنبات ودورته الزراعية، والموت، والقمر، والماء، ينبوعاً وجدولاً ومطرراً وشلاً ولجّة ودموعاً، والليل والكهف والألوان والسخونة والغناء والموسيقى^(١٤) وقراءة المرأة تعني، بشكل أو بآخر، قراءة لكل تلك الرموز.

والمرأة هي الأنثى، هي المؤنث. وهذا ما ينقلنا إلى مجموعة ثانية من الرموز، إذ «نلاحظ أن جميع الكلمات «الوجودية» المعبرة عن التحام الانسان بمصيره، في العالم، هي كلمات مؤنثة، ففي اللغة العربية مثلاً، هناك الحياة، الأم، اللغة، الطبيعة، الخصوبة، جميعها كلمات مؤنثة»، هذا ما يقوله ستيبة الذي يضيف قائلاً: «لا أريد أن أذكر جميع المفردات المؤنثة لتوضيح موقعي من المرأة، فهي في شعري، محور الوجود. وربما انطلق شعري، بصورة عفوية، نحو جميع المؤنثات «في الوجود وفي اللغة»^(١٥).

(عناصر أنثوية تومض قولاً يشع في ظلمات اللغة)

قراءة امرأة واحدة أدخلتنا إذن بصورة تلقائية في قراءة «جميع المؤنثات»، ولكن قبل أن نلج هذه المتاهة الشاسعة نستدرك لنقول إن المرأة قبل كل شيء هي الإنسان. الإنسان بكل تعقيداته، بواقعه وخياله، بألامه وآماله، بجسده وروحه، بماضيه ومستقبله. . . ومحاولة قراءتها تعكس الرغبة في معرفة الآخر واكتشاف الذات في اكتناه أسرار ذلك الكون المصغر الكامن في كل منا. هي المثيل إذن. هي المرأة العاكسة والحاجبة، الموصلة والفاصلة، المقربة والمبعدة، الشفافة والصفيفة، ولكنها قد تكون امرأة مقعرة أو محدبة تشوه صورة من لا يحسن اختيار البعد المناسب والزاوية الملائمة. قد

وإذا ما لوحظ شبه بينها وبين أخريات، أو الأخريات، فذلك يعود لتشابه أفراد الجنس الواحد ليس إلا.

(نكرة تحاول القراءة التعريف بها)

وهي بذلك مفرد، واحد من البشر، وزيادة في التحديد: أنثى. هي امرأة تطل بأنوثتها عنواناً مجرداً من التعريف ومن الجسد. تلملم جسداً من أحرف وسطور من صرف ونحو ومفردات. من نقاط وفواصل ومقاطع. امرأة - فرد مقترنة بالقراءة مضافة إليها. والإضافة اللفظية في «قراءة امرأة» تعني أن الاسم الثاني يكمل معنى الأول: قراءة لمرأة، ولكنها قد تعني أيضاً تبعية الأول للثاني قراءة من امرأة.

جدلية تدخل الاسميين في حركية تداخل وتفاعل، تجعل كلاً منهما يتهاى في الآخر. ندعها الآن ونعود إلى المفرد. امرأة - فرد، قلنا. واحد، بل واحدة. وفي كلتا الحالتين تدخلنا في ميدان العدد، تضحي افتتاحاً للعدد. لأعداد لامتناهية. ليست رقمياً عشوائياً، بل هي عدد يحتفظ لنفسه بمكانة مميزة. يتموضع بعد العشرات والمئات والآلاف.

يشكل منطلق الأعداد وتشعباتها، هكذا تكتسب «امرأة» تحديداً إضافياً مضمراً: واحدة أو إحدى أو حادية، يسبق كل منها أو يلي عدداً آخر ليشع أبوابه على أبعاد جديدة ومسافات للاحدودة. هذا العدد المفتوح هو الذي يشكل منه ستيبة عنواناً لكتاب آخر، الليلة الأولى بعد الألف^(١٦) أو كما أود أن أقول «الليلة الحادية» متجاوزاً بذلك الاستعمال الحصري لكلمة «الحادية» المرتبطة بالعقود.

(امرأة حادية مقروءة في ليلة حادية)

بمقاربة بسيطة مع العنوان المذكور، نجد أنفسنا في عالم ألف ليلة وليلة. نعطف بسرعة ويسر نحو شهرزاد، المرأة القارئة - المقروءة، المرأة التي تقرأ العالم حكاية حكاية، ويقرؤها السلطان ليلة ليلة، دون أن تنفذ الحكاية ودون أن تستنفذ المرأة. شهرزاد: امرأة يكتبها - يقرؤها - مؤلف الكتاب المجهول، الفاقد اسمه وهويته وجسده والمستبدل بها نصاً - جسداً - هوية - معرفة. وامرأة تروي - تقرأ - خيال الكاتب، أوهامه وتهيؤاته وأحلامه تقرأ نفسها والكاتب والسلطان والآخرين. والاثنان يقرآن تحت السيف المسلول، يقفان على حدّ توقّف القول وفقدان الكلمة.

هنا تكمن أهمية «الليلة الحادية»، ليلة الكشف، ليلة تفتح العبقرية^(١٧)، ليلة استمرارية القول ومواصلة القراءة. ومن هنا نعود إلى «قراءة امرأة» لنرى عنواناً يتوالد: «قراءة امرأة حادية»، امرأة يساقط عليها القول رذاذ حروف لا تنضب، وامرأة ينطلق لسانها بالقول دون ملل ولا تعب. يفتح فيها ولها باب إلى الأسرار الكبرى، باب يتوصل من يسلكه إلى النقاط ومضة من «ليل المعنى»، إلى السكنى في قلب الأزل.

الشمس»^(١١). وتلك أخيراً هي المرأة: جسد الشهوة اللامرئوتية اللاراوية وجسد التولد والتوالد المتواصلين وجسد اللغة المنطوي على إمكانيات لا محدودة من الشرح والتأويل. وهي لغة تلك الأجساد مجتمعة، حلولية مزدوجة.

نعم، تلك هي «القراءة» وتلك هي الرواية - القصيدة، بل المرأة القصيدة. ذلك هو النص الروائي - الشعري: وسيط بين المتناقضات، يفتش عنها، يستحضرها، يجمعها في سديم الكتاب حيث يتجاوز الضدّ وضده ثم يدخلان في نسيج واحد يتشكّل من خيوطه ورسومه المتنافرة - المتصالحة مصغّر كون مزركش بالحضور والغياب، بالوجود والعدم، بالوضوح والغموض، بالعرض والجوهر. نفث، ذرّات، حبيبات، موجبات من كلمات ومعاني وصور ترسم جسد طفلة كلامية ما تكاد تولد حتى تضجّ أنوثة فأمومة فقوياً فانتحاراً كأنما تروم به تشكلاً جديداً، انبعاثاً من الأسطر والفصول، ولادة خيالية في ذهن كل قارئ لـ «قراءة امرأة».

بذلك فقط حفظت نفسها من الموت وصانت جسدها من الاستهلاك. لقد نزلت من القارئ منزلة الشهوة، منزلة ومضة الأبد - القصيدة. «والقصيدة هي الحب التحقق في الشهوة الباقية شهوة»^(١٢). ولكن القصيدة هي بدورها جسد، «تنفّس وجسد». «كلا ليست القصيدة خطاباً، نعم إنها جسد، جسد هي: مشع جسد هي عطوب»^(١٣). أين توجد المرأة، وأين تقف القصيدة؟ أما القارئ، الشاعر - الروائي فأين هو موقفه؟ ما هو كنه سؤاله وكيف يبدأ كتابة الأجوبة؟

«الشاعر، كالمراة، حامل بجنين غامض، وكالمراة أيضاً، من خلال ملامسة الموت يصنع حياة. ما أخذته منه تلك الحياة على امتداد الأيام على تعرجات النهر هل سيدركه يوماً؟ إن الطفل الغامض هو ابنه بكل بساطة وهو يعرفه بعلامة»^(١٤). يتهاهى الكاتب والمراة والنص. يتهاهى القارئ والمقروء والقراءة، يتبادر سؤال كان يتردد منذ البداية بشكل غير مباشر: من يقرأ الآخر؟

والجواب على ذلك ليس باليسير في عالم صلاح ستيتية حيث يمثل الشعر مساءلة الأسرار الكبرى والقراءة تلمساً للمعنى وما وراء المعنى والمراة تجسيدا للسديم البدئي وللشجرة الكونية وللصيرورة والمصير. ولكن المهم أن القراءة المتعاكسة التي يفترضها عنوان نحن بصده هي تجاوز للمقروء المتلقّي، تجاوز لصيغة المفعول السلبية نحو صيغة أخرى تجعل الطرفين مشاركين في خلق لغة تباحث وتساؤل وتواصل، والقراءة هي محاولة إيجاد تلك اللغة، وهي محاولة يشترك فيها الجميع: الكاتب وشخصياته والقارئ.

ونعطي للقارئ هنا معناها الشائع والمتداول، هذا القارئ الذي وضعه الشعر الرمزي منذ منتصف القرن التاسع عشر أمام ضرورة قراءة الوجه الآخر للنصّ ثم فرضت عليه «الرواية الفرنسية

تضحى أحياناً «أرتيميس» التي تتمرأى وتستحمّ جذلي في عيون الماء، ولكنها تسحر ثم تعاقب بوحشية كل «أكتيون» (Actéon) يتجرأ على اختلاس النظر واقتناص السر، أو تصبح أحياناً أخرى «أوفيليا» (Ophélie) الطافية منتحرة على مراة اليمّ حارسة سرّها الدفين بشعرها المرسل وأزهارها المتناثرة، تظهر حيناً بوجه ساحرة الحكايات القبيح لتزوّد الشريرات بمرايا السوء، وتختال أحياناً بسحر فينوس وروعيتها لتفعم بالجمال والسعادة قلب من يستغرق متأملاً وقارئاً لمفاتنها.

إنها حافظة السر وحارسته والقيّمة عليه، بل هي حاملة له ومحتوية عليه تحمله في قلبها عاطفة وفي رحمها جنيناً وفي ثديها غذاء وعلى لسانها قولاً بين دقق وامتناع. تصونه وترعاه ولكنها تمثله، ولكنها هي هو، هي سر الوجود وآيته الكبرى، وهي المظهر والجوهر وهي الإنصاح والكمون - هكذا تصبح المحتوى، الشكل والمضمون، المعنى والمبنى... والمقروء والقارئ.

القارئ المقروء

انطلاقاً من تصادم - تساكن الكلمات والمعاني نتوصّل إلى معادلة جديدة بين المراة والقراءة، بين المراة متنناً للقول وتجسيدا للفظن. المراة قصيدة ولوحة ومنحوتة وأغنية وسمفونية، والمراة شاعراً ورسّاماً ونحاتاً وموسيقياً.

لقد سبق أن قلنا إن «قراءة امرأة» قد تعني قراءة لامراة من قبل شخص أو قراءة تقوم بها امرأة. كما أشرنا إلى أن العنوان يدخل كلمته في عملية تفاعل وتبادل وتداخل متواصلة.

قراءة لا تنتهي ولا تشبع نهم «القارئ» بل تزيده، وامراة لا تستنفد بل تتكشّف عن أسرار وألغاز كلما انكشف منها وميض سر أو تراءى في ظلماتها قيس من نور. ذلك هو الكاتب - القارئ: «رامٍ أعمى»^(١٥) يسدّد سهامه بظلمة عينيه في ظلمات الكون «والنابل يرمي في سواد ما هو بلون، وإنما نقص، غياب، من أعماق ذلك الانتظار الطويل الذي هو انتظاره مصغياً للوجود الحالك الظلمة من حوله، وبما في ذاته من رهف وصقل، يسائل مادة الكون التي هي من تنفّس ومن ليل»^(١٦) وتلك هي القراءة: تلمّس لومضة في ليل معتم: والومضة تهر للوهلة الأولى لكونها برقاً خلباً، لكنها لا تلبث أن تكشف بصورة خاطفة حيناً كان الظلام يلفّه ثم عاد ليغرق فيه. وبين الومضة والومضة، تلالؤ نجمة وانخفاف شباب، يعود «القارئ» ليلته في الليل بانتظار بروق أخرى تهر وتنير على طريق الفجر.

هناك يتيه مفتشاً عن «سؤال يبقى دون جواب ولذلك يعدّبه، وعن جواب لا يصدر عن سؤال ولذلك يحيرّه ويبلبله»^(١٧). وبين السؤال والجواب، بين الليل والليل، يتصرّف ويستمتع إذ يرى «كيف تنزغ وتتشكّل تحت مبضع الحلم قطرة من الواقع، قطرة من

حتى ركائز المذكر والمؤنث تختلّ هنا قليلاً. ولكن في عملية التقمص - والتخلقن المرتحلة نحو الأعماق المشعة تلبس أحياناً أقنعة وملابس تنكّرية وتختلّي في العتمة أحياناً أخرى ملامح الجسد فلا تُرى سوى خطوطه العريضة وتبرز أحياناً تحت النور الساطع للومضة - الشهوة كل مفاتن الجسد وإثارته. رحلة عودة هي إذن... رحلة انغماد.

انغماد القراءة في المرأة والجسد، وانغماد المرأة في جسد الكلمة، وانغماد الكلمة والمرأة في الأمر: «اقرأ». لكي ينبجس من اللسان قول، وفي الفؤاد توق، وفي النفس معرفة، وفي العقل والإدراك إيمان وفعل.

انبثاق الفكر من جسد يقارب بشوق ورغبة، وانبلاج الجسد: جراً يتفتّق عن شمس تُرى فتتير، وتُقسال فتضيء وتدفق... تدفق الجسد والكلمة، تسخن، تحمي، تذيب، تصهر، تلهب، تحرق... يتولّد جسد قول جديد... يا لشهوة الكلمة... يا لصوفية الجسد!

د. مصباح الصمد

الجامعة اللبنانية - كلية الآداب - الفرع الثالث

الجديدة في خمسينات هذا القرن أن يتعلّم القراءة المتساهية للنصوص وملء الفراغات التي يتركها الكاتب عن قصد بين ثناياها. هذا القارئ يأخذ عند ستيّية دوراً أساسياً يتجاوز الفهم والتعمق والإيجابية فتتأثر «بين القارئ وبين النص الشعري علاقة حيوية، علاقة تأمرية بالمبنى وبالمدنى وبالسيره الحياتية بل علاقة خلق وتفاعل بين الشاعر وقارئ شعره»^(٣٥). أما العلاقة التأمريّة فمن البديهي أنها لا تعني التأمّر الرخيص، بل تخطيطاً وعملاً تضامنياً تكاملياً بهدف اجتياز نقطة الغسق باتجاه فجر المعرفة وإشراق القول.

من يقرأ من؟

يعود السؤال من جديد، لا ليحمل الجواب، وإنما ليزيد عدد القراء ولينوع المقروئين - والمقروءات. يعود ليوسّع دائرة القراءة ويعدّد احتمالاتها ووسائلها وغاياتها، ليجعل القارئ عاشقاً صوفياً يتماهى في العشق وفي المعشوق، ليرى في المعشوقة اختصاراً لكل مسافات الكون وأزمانه ولغاته، ليرسم على جسدها شهوة كل سؤال واشتهاء كل جواب، وليقولها وتقولها - تقول السؤال والعاشق - جسداً لغوياً تتفتّح فيه منافذ حمل وولادة: أسئلة وأجوبة متوالية الكشف والغموض... لغة تنشد الإنجاز، وامرأة هي «وعد غير منجز».

(١٤) ليل المعنى، ص ١٤٧.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٦٦.

(١٦) انظر جيلبير دوران، الأثرولوجيا، ترجمة مصباح الصمد، الفصل الأول من الكتاب الثاني، «أنشودة الليل» و«الأرض والأم»، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت ١٩٩١.

(١٧) ليل المعنى، ص ٦٦.

(١٨) عنوان أحد كتب صلاح ستيّية، *Archer aveugle*, éd. Fata Morgana, 1985.

(١٩) المصدر المذكور، ص ٢١٨.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٩٩.

(٢١) نفسه، ص ٢١٠.

(٢٢) قول لرنيه شار (R. Char) يستشهد به ستيّية 173 p. *Archer aveugle*, et 187.

(٢٣) *La Unième nuit*, p. 86.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٤١. انظر أيضاً: ليل المعنى، ص ١١٣.

(٢٥) ليل المعنى، ص ١٠٤.

(١) عنوان رواية صلاح ستيّية باللغة الفرنسية، وقد قام كاتب المقال بترجمتها إلى العربية. *Lecture d'une femme*, éd. Fata Morgana, 1988.

(٢) سورة العلق، الآيات ١ إلى ٥.

(٣) بداية الفصل ٢٤ من الرواية.

(٤) Michel Butor, «Germe d'encre», in *Répertoire III*, p. 218.

(٥) Salah Stétié, *La Unième nuit*, p. 53.

(٦) S. Stétié, «L'Exil comme pouvoir», in *Archer aveugle*, p. 66.

(٧) S. Stétié, *Archer aveugle*, p. 201.

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٢٤.

(٩) صلاح ستيّية، ليل المعنى، ص ١١٦.

(١٠) نشير هنا إلى أن الاسم يتبدى بالفرنسية أيضاً، بحرف أخرس: Hélène: (h muet).

(١١) *La Unième nuit*, éd. Stock, Paris, 1980.

(١٢) بمفارقة يقول راوي قراءة امرأة: «الموت هو رؤية تفتح العبقريّة» (الفصل الرابع).

(١٣) عنوان أحد دواوين صلاح ستيّية *Obscure lampe decela*, éd. Jacques Stétié Brémond, Paris, 1979.